أَسْبَابُ اكْتِسَابِ مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ:

١- الإِخْلَاص:

لِلإِخْلَاصِ تَأْثِيرٌ عَظِيمٌ فِي الأَخْلَاقِ؛ فَهُوَ يَمُدُّ قَلْبَ صَاحِبِهِ بِقُوَّةٍ تَجْعَلُهُ يَنْهَضُ لِلْمَكَارِمِ؛ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ؛ لأَنَّ الأَخْلَاقَ عِبَادَةٌ يُكَمِّلُ بِهَا الإِنْسَانُ إِيمَانَهُ؛ لِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**»(١).

وَلَنْ يُسْتَكْمَلَ إِيمَانُ الْمَرْءِ حَتَّىٰ يَكُونَ عَمَلُهُ خَالِصًا لِوَجْهِ اللهِ صَوَابًا عَلَىٰ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ - ﷺ -.

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: «**مَنْ أَحَبَّ للهِ، وأبغض للهِ، ومَنَعَ للهِ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ**»(٢).

---

(١) صحيح، رواه أبو داود (٤٦٨٢)، والترمذيُّ (١١٦٢)، وصححه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٢٨٤)، و«صحيح الجامع» (١٢٣٢).

(٢) صحيح، رواه أبو داود (٤٦٨١)، والترمذيُّ (٢٥٢١)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٩٥٦٥).

٢ - العِلْمُ :

العِلْمُ أَصْلٌ عظيمٌ مِنْ أُصُولِ الأَخْلاقِ فَهُوَ يُثمِرُ التَّدَيُّنَ الصَّحِيح، فَكَمْ مِنْ آيَةٍ في كِتَابِ اللهِ تَقْرَؤها، فَتُرَقِّقَ قَلْبَكَ للإِحْسَانِ، والرَّحْمَةِ، والحَنَانِ، وكَمْ مِنْ حَدِيثٍ تتخَلّق به مَعَ النَّاسِ، يَجْلِبُ لَكَ مَحَبَّةَ اللهِ، ثُمَّ مَحَبَّةَ النَّاسِ.

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ - رَحِمَهُ اللهُ -: «مَنْفَعَةُ العِلْمِ في اسْتِعْمَالِ الفَضَائِلِ عظيمَةٌ، وَهُوَ أَنَّهُ يُعَلِّمُ حُسْنَ الفَضَائِلِ، فيَأْتِيهَا - وَلَوْ في النُّدْرَةِ - ويُعَلِّمُ قُبْحَ الرَّذائلِ، فَيَجْتنبهَا - ولو في النُّدْرَةِ -، ويُسَمِّعُ الثَّناءَ الحَسَنَ، فيرغبُ في مِثْلِه، والثَّناءَ الرَّديَّ، فينفرُ مِنْهُ، فَعَلَىٰ هَذِهِ المُقَدِّمات يَجِبُ أَنْ يَكُونَ للْعِلْمِ حِصَّةٌ في كُلِّ فضيلةٍ، وللْجَهْلِ حِصَّةٌ مِنْ كُلِّ رَذِيلَةٍ.

وهَذِهِ مَنْزِلَةٌ خُصَّ بِهَا النَّبِيُّونَ - عَلَيْهِم السَّلام -؛ لأنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ - عَلَّمَهُم الخَيْرَ كُلَّهُ، دونَ أنْ يَتَعَلَّمُوهُ مِنَ النَّاسِ»(١).

(١) «الأخْلاق والسِّيَر» (٩٣).

٣ - العقيدة الصَّحيحة:

العَقيدَةُ الصَّحيحَةُ هيَ أَصْلُ الأَخْلاقِ وَمَصْدَرُهَا، فَإِذَا ثَبَتَتْ واسْتَقَرَّتْ، أَثْمَرَتِ الأَخْلاقَ الفَاضِلَةَ.

فَالإِصْلاحُ مَبْدَؤُهُ مِنَ القَلْبِ، وَكَذَلِكَ الفَسَادُ، ثُمَّ يَتَّسِعُ لِيَشْمَلَ إِرادَةَ الإِنْسَانِ وأَفْعَالَهُ فَعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ -رضي الله عنه- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- يَقُولُ: «**أَلاَ وإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ: أَلاَ وهِيَ القَلْبُ**»(١).

قَالَ الغَزَالِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-: «آدَابُ الظَّوَاهِرِ عُنوانُ آداب البَوَاطِنِ، وَحَرَكَاتُ الجَوَارِحِ ثَمَرَاتُ الخَوَاطِرِ، والأَعْمَالُ نَتِيجَةُ الأَخْلاقِ، والآدَابُ رَشْحُ المَعَارِفِ، وسَرَائِرُ القُلوبِ هي مَغَارِسُ الأَفْعَالِ ومَنَابِعُهَا، وَأَنْوَارُ السَّرَائِرِ(٢). وهِيَ الَّتِي تُشْرِقُ عَلَىٰ الظَّوَاهِرِ، فَتُزَيِّنُهَا وتُجَلِّيهَا، وتُبَدِّلُ المَحَاسِنَ بِمَكَارِمِهَا وَمَسَاوِيهَا، ومَنْ لَمْ يَخْشَعْ قَلْبُهُ، لَمْ تَخْشَعْ

(١) رواه البُخاريُّ (٥٢)، ومُسْلِمٌ (١٥٩٩).
(٢) السَّرائر: القُلُوب، مُفرده سريرةٌ.

جَوَارِحُهُ، ومَنْ لَمْ يَكُنْ صَدْرُهُ مشكاةَ[١] الأَنْوَارِ الإِلَهِيَّةِ، لَمْ يُفِضْ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ جَمَالَ الآدَابِ النَّبَوِيَّةِ»[٢].

٤ - النَّظَرُ في كتابِ الله:

كِتَابُ اللهِ - سُبحانَهُ وتَعَالَىٰ - جَمَعَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ خَيْرُ جَمْعٍ، فَمَنْ أَرَادَ الأَخْلاقَ فَلْيُحاوِلْ جَاهِداً أَنْ يَتَخَلَّقَ بِأَخْلاقِ القُرْآنِ.

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ - رَحِمَهُ اللهُ - : «مَنْ جَهِلَ الفَضَائِلَ، فَلْيَعْتَمِدْ عَلَىٰ مَا أَمَرَ اللهُ - تَعَالَىٰ - ، ورسُولُهُ - ﷺ - فإِنَّهُ يحْتَوِي عَلَىٰ جَمِيعِ الفَضَائِلِ»[٣].

٥ - التَّأَسِّي بالنَّبيِّ - ﷺ -:

النَّبيُّ - ﷺ - هُوَ الأُسْوَةُ الحَسَنَةُ، الَّذي أَمَرَنَا اللهُ بالتَّأَسِّي بِهِ في أَقْوَالِهِ، وأَفْعَالِهِ، وأَحْوَالِهِ.

---

(١) المشْكاة: فجوةٌ في الجدار، لا تصل فتحته إِلَىٰ الطّرف الثّاني منه، شبه الصَّدْرَ بها.

(٢) «الإِحْياء» (٢/٣٥٧).

(٣) «الأَخْلاق والسّير» ر ١٧٦).

قَالَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأَحْزاب : ٢١].

قَالَ ابنُ حَزْمٍ - رَحِمَهُ اللهُ -: « مَنْ أَرَادَ خَيْرَ الدُّنيا والآخِرَةِ، وَحِكْمَةَ الدُّنْيَا، وَعَدْلَ السِّيرَةِ، والاحْتِوَاءَ عَلَىٰ مَحَاسِنِ الأَخْلاقِ كُلِّها، واسْتِحْقاقَ الفَضَائِلِ بأَسْرِهَا - فَلْيَقْتَدِ بمحمَّدٍ - ﷺ -، وَلْيَسْتَعْمِلْ أَخْلاقَهُ وسِيَرَهُ ما أَمْكَنَهُ، أَعَانَنَا اللهُ علَىٰ الاتِّسَاءِ بِهِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ »(١).

٦ - الدُّعَاءُ :

الدُّعَاءُ سَبَبٌ عَظِيمٌ لِنَيْلِ مَكارِمِ الأَخْلاقِ، وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - كَثِيرُ الضَّرَاعَةِ إِلَىٰ رَبِّهِ أَنْ يَرْزُقَهُ حُسْنَ الخُلُقِ، فَكَانَ يقُولُ في دُعَاءِ الاسْتِفْتَاحِ مِنْ صَلاةِ اللَّيْلِ: «**اللَّهُمَّ، اهْدِنِي لأَحْسَنِ الأَخْلاقِ، لا يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلاَّ**

(١) « الأَخْلاق والسِّير » (٩١).

أَنْتَ، واصْرِفْ عنِّي سيِّئَهَا، لا يَصْرِفُ عنِّي سَيِّئَهَا إلاَّ أَنْتَ»(١).

٧ - العَمَلُ الصَّالِحُ:

الإيمَانُ والعَمَلُ الصَّالِحُ يبعَثَانِ عَلَىٰ مَكَارِمِ الأَخْلاقِ، وَهُمَا النِّظَامُ الدَّاخليُّ الَّذي يُقَوِّمُ أَخْلاقَ المَرءِ ويُوَجِّهُهَا.

وإنِّي لَيُثْنِيْنِي عَنِ الجَهْلِ وَالخَنَا
وعَنْ شَتْمِ ذِي القُرْبَىٰ - خَلائِقُ أَرْبَعُ:
حَيَاءٌ، وإسْلامٌ، وتَقْوَىٰ، وَطَاعَةٌ
لِرَبِّي، وَرَبِّي مَنْ يَضُرُّ وَيَنْفَعُ(٢)

٨ - الرُّفْقَةُ الصَّالِحَةُ:

الرُّفْقَةُ الصَّالِحَةُ مِنْ أَعْظَمِ الأَسْبَابِ المُعِينَةِ عَلَىٰ مَحَاسِنِ الأَخْلاقِ.

---

(١) رواهُ مُسلم (٧٧١).
(٢) «أدب الدُّنيا والدِّين» (٢٥٠).

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: «**الرَّجُلُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ؛ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**»(١).

ومَعْنَىٰ الحَدِيثُ أَنَّ الإِنْسَانَ فِي الدِّينِ والأَخْلاقِ عَلَىٰ قَدْرِ مَنْ يُصَاحِب؛ فَلْيَنْظُرْ مَنْ يُصَاحِب، فَإِنْ صَاحَبَ الصَّالِحِينَ صَارَ مِنْهُمْ، وإِنْ صَاحَبَ سِوَاهُم صَارَ مِثْلَهُمْ، وَقَدِيمًا قِيلَ: «قُلْ لِي: مَنْ تُصَاحِبْ؟، أُخْبِرْكَ مَنْ أَنْتَ».

أَنْتَ فِي النَّاسِ تُقَاسُ ... بِالَّذِي اخْتَرْتَ خَلِيلا
فَاصْحَبِ الأَخْيَارَ تَعْلُو ... وتَنَلْ ذِكْرًا جَمِيلاَ

٩ - المُحَاسَبَةُ:

زَكَاةُ النَّفْسِ وَطَهَارَتُهَا مَوْقُوفٌ عَلَىٰ مُحَاسَبَتِهَا.

قَالَ ابْنُ المُقَفَّعِ: «لِيَحْسُنْ تعاهُدُكَ لِنَفْسِكَ، بِمَا تَكُونُ بِهِ لِلْخَيرِ أَهْلاً؛ فَإِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ، أَتَاكَ الخَيْرُ يَطْلُبُكَ، كَمَا يَطْلُبُ المَاءُ السَّيلَ إِلَىٰ الحُدُورَةِ(٢)»(٣).

---

(١) حسن، رواه أبو داود (٧٨٣٣)، والتِّرْمِذيُّ (٣٣٧٨)، وحَسَّنَهُ الألبانيُّ في «الصحيحة» (٩٢٧).

(٢) الحُدُورة: المنخفض من الأرض.

(٣) «الأدب الصَّغير والأَدَب الكَبير» (٩٠).

١٠- المُجاهدَة:

الأَخْلاقُ منْهَا مَا هُوَ طَبْعٌ يَتَفَضَّلُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَىٰ بَعْضِ خَلْقِه فَيَجْبِلَهُمْ عَلَيْهَا منْ غَيْرِ كَسْبٍ منْهُمْ، ومَنْ حُرِمَ الخُلُقَ عَلَىٰ سَبيلِ الطَّبْعِ؛ فَإِنَّهُ يُمْكنُ أَنْ يَنَالَهُ عَلَىٰ سَبيلِ التَّطَبُّعِ بمُجَاهَدَةِ نَفْسِه وَحَمْلِهَا عَلَىٰ مَكَارِمِ الأَخْلاقِ فإنَّ النَّفْسَ قَابلةٌ لذَلكَ.

قَالَ أَبُو ذُؤَيْبٍ الْهُذَلِيُّ:

والنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَّبْتَهَا
وإِذَا تُرَدُّ إِلَىٰ قَلِيلٍ تَقْنَعُ

قَالَ ابْنُ قُدَامَةَ - رَحِمَهُ اللهُ -: «وَقَدْ زَعَمَ مَنْ غَلَبَتْ عَلَيه البطَالَةُ؛ فَاسْتَثْقَلَ الرِّيَاضَةَ: أَنَّ الأَخْلاقَ لا يُتَصَوَّرُ تَغييرُها، كَمَا لا يتصوَّرُ تَغْيِيرُ صورةِ الظَّاهِرِ!، وَالجَوَابُ أَنَّهُ لَوْ كَانَت الأَخْلاقُ لا تَقْبَلُ التَّغْيير، لَمْ يَكُنْ للْمَوَاعظِ وَالوَصَايا مَعْنىً، كَيْفَ تُنْكرُ تَغْيِيرَ الأَخْلاق؟! ونَحْنُ نَرَىٰ الصَّيْدَ الوَحْشيَّ يُسْتَأْنَسُ، وَالْكَلْبُ يُعَلَّمُ تَرْكَ الأَكْلِ،

والْفَرَسُ تُعَلَّمُ حُسْنَ المَشْيِ، وجَوْدَةَ الانْقِيَاد، إلاَّ أنَّ بَعْضَ الطِّبَاعِ سَرِيعَةَ الْقَبُولِ للصَّلاحِ، وبَعْضَهَا مُسْتَعْصِيَةٌ»(١).

١١- عُلُوُّ الهِمَّةِ:

عُلُوُّ الهِمَّةِ: «هُوَ اسْتِصْغَارُ مَا دُونَ النِّهَايَةِ مِنْ مَعَالِي الأُمُورِ»(٢).

وتَعْلُو أخْلاقُ المَرْءِ وَتَسْمُو بِقَدْرِ نَصِيبِهِ مِنْ عُلُوِّ الهِمَّةِ.

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ - رَحِمَهُ اللهُ -: «فَمَنْ عَلَتْ هِمَّتُهُ، وخَشَعَتْ نَفْسُهُ، اتَّصَفَ بِكُلِّ خُلُقٍ جَمِيلٍ، ومَنْ دَنَتْ هِمَّتُهُ، وطَغَتْ نَفْسُهُ، اتَّصَفَ بِكُلِّ خُلُقٍ رَذِيلٍ»(٣).

١٢- الاسْتِفَادَةُ مِنَ الآخَرِينَ:

اللَّبِيبُ يَسْتَفِيدُ مِنْ كُلِّ مَنْ يُخَالِطُهُ، سَوَاءٌ كَانَ نَاقِصًا أَمْ كَامِلاً، وأَكْثَرُ العُقَلاءِ والحُكَمَاءِ يَتَعَلَّمُونَ المَكَارِمَ مِنَ الموصُوفِينَ بِأَضْدَادِهَا!.

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (١٥٢).
(٢) «رسَائلُ الإِصْلاحِ» لمحمد الخضر حسين (٢/ ٨٦).
(٣) «الفوائد» (٢١١).

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ - رَحِمَهُ اللهُ -: «وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَتَعَلَّمُ المُرُوءَةَ، ومَكَارِمَ الأَخْلاقِ مِنَ المَوصُوفينَ بأضْدادِهَا، كَمَا رُوِيَ عَنْ بَعْضِ الأَكَابِرِ أَنَّهُ كَانَ لَهُ مَمْلُوكٌ سَيِّئُ الخُلُقِ، فَظٌّ غَليظٌ، لا يُنَاسِبُهُ، فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي أَدْرُسُ عَلَيْهِ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ!».

«وَهَذا يكُونُ بِمَعْرِفَةِ مَكَارِمِ الأَخْلاقِ في ضِدِّ أَخْلاقِه، ويَكُونُ بِتَمْرِينِ النَّفْسِ عَلَىٰ مُصَاحَبَتِه، ومُعَاشَرَتِه، والصَّبْرِ عَلَيْه»(١).

١٣- النَّظَرُ في عَوَاقِبِ سُوءِ الخُلُقِ:

سَيِّئُ الخُلُقِ مَذْكُورٌ بالذِّكْرِ القَبِيحِ، يَمْقُتُهُ اللهُ - عزَّ وجلَّ -، ويُبْغِضُهُ الرَّسُولُ - ﷺ -، ويُبْغِضُهُ النَّاسُ عَلَىٰ اخْتِلافِ مَشَارِبِهِمْ.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: «**وإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ، وأَبْعَدَكُمْ مِنِّي في الآخِرَةِ، أَسْوَؤُكُمْ أَخْلاقًا**»(٢).

---

(١) «مدارجُ السَّالكين» (٢/ ٣٣٥).

(٢) صحيح، رواهُ ابنُ مَاجَةَ (٤٢٢٤)، وصححه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٧٤٠).

قَالَ الغَزَاليُّ – رَحِمَهُ اللهُ –: «الأَخْلاقُ السَّيِّئَةُ هي السُّمُومُ القَاتِلَةُ، والمُهْلِكَاتُ الدَّامِغَةُ، والمَخَازي الفَاضِحَةُ، والرَّذَائِلُ الوَاضِحَةُ، والخَبَائِثُ المُبْعِدَةُ عَنْ جِوَارِ رَبِّ العَالَمِينَ، المُنخَرِطَةُ بِصَاحِبِهَا في سِلْكِ الشَّيَاطِينِ، وهِيَ الأَبْوَابُ المَفْتُوحَةُ إِلَىٰ نَارِ اللهِ المُوقَدَةِ، الَّتي تَطَّلِعُ عَلَىٰ الأَفْئِدَةِ»(١).

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/٥٣).